قراءات ومراجعات

مراجعة لكتاب
المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم*
تأليف: أحمد بسّام ساعي**

حسام مصطفى اللّحّام***

يصدر هذا الكتاب عن رؤية محدّدة لجوهر الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم، متجاوزاً تلك الدّراسات التي ارتكزت –في معظمها– على الإعجاز البلاغي. ولا يعني التّجاوز–هنا– الرّفض أو القفز، بل الاستيعاب والدّمج والتقدّم بالبحث؛ لوضع اليد على سرّ الإعجاز؛ من خلال تحديد السرّ، وتحليله تحليلاً منضبطاً قابلاً للإثبات، على نحو علميّ قاطع. ومن ثَمّ تكمن جِدّةُ هذا الكتاب وخطورتُه؛ فهو ينفرد برؤيته الخاصّة للإعجاز القرآني، ويعالج –وفقاً لهذه الرؤيّة– كثيراً من القضايا التي أسهب دارسو الإعجاز في مناقشتها.

يتألّف الكتاب من جزأين كبيرين (يقعان في ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير)؛ يطرح الباحث في الجزء الأوّل منهما قضيّة الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم. وهو إذْ يحاول اكتناه هذا الجانب لا يجد حرجاً في التّصريح بضرورة الخروج من عباءة الدّراسات البلاغيّة

* السّاعي، أحمد بسّام. **المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم**، هرندن: المعهد العالم للفكر الإسلامي، (الجزء الأوّل) الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، و(الجزء الثّاني) الطّبعة الأولى ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

** من مواليد مدينة اللاذقيّة في سورية عام ١٩٤١. حصل على درجته العلمية الأولى من جامعة دمشق، وعلى الماجستير والدكتوراه في الأدب العربي من جامعة القاهرة، ودرّس في الجامعات السورية والعربية. درّس في جامعة أوكسفورد، وأسّس أكاديميّة أوكسفورد للدراسات العليا لتكون أوّل معهد جامعي في الغرب يؤسّسه عربي أو مسلم وينال اعترافاً حكوميّاً. له العديد من المؤلّفات منها: الصورة بين البلاغة والنقد، الواقعيّة الإسلاميّة في الأدب والنقد، حركة الشّعر الحديث من خلال أعلامه في سورية، مسلمون في مواجهة الإسلام، مسيحيّون في مواجهة المسيحيّة.

*** دكتوراه في البلاغة– الجامعة الأردنية، أستاذ مساعد، قسم اللّغة العربيّة– كليّة الآداب– جامعة الزيتونة الأردنيّة.
البريد الإلكتروني: husam.lahham@yahoo.com

تم تسلّم المراجعة بتاريخ ٢٠١٤/٢/١٣م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٤م.

واللغويّة القديمة والحديثة التي عُنيت بالكشف عن سرّ الإعجاز؛ ذلك لأنّها لم تقف على حقيقة اللغة الجديدة التي جاء بها القرآن الكريم؛ مع إقرار الباحث بأهميّة تلك الجهود التي عنيت بما اشتمل عليه القرآن من: الرّوعة، والجمال، والدّقّة في التّعبير، والفصاحة. ولكنّ هذا كلّه غير كاف للوصول إلى جوهر الإعجاز القرآنيّ؛ لأنّ تلك الصّفات الماثلة قد توجد في آداب البشر، على حين يريد هو أن يضع يده على النّقطة الجوهريّة التي تمثّل سرّ الإعجاز، على نحو علميّ مستند إلى لغة الأرقام، والتّحليل، والاستقصاء.

ويمثّل "الإعجاز اللّغويّ في القرآن" تلك النّقطة الجوهريّة. وينطلق الباحث في توضيحها من حقيقة مفادها أنّ "للقرآن لغته الخاصّة واستعمالاته الخاصّة التي تختلف عن استعمالاتنا البشريّة: الرّسميّة منها واليوميّة."[١] ويُعدّ هذا المنطلق مدار الكتاب؛ وقد دأب الباحث على تأكيده تنظيراً وتطبيقاً، مُفصحاً عنه بقوله: "إنّ ما في هذه اللغّة ليس نوعاً من الاختراعات العلميّة التي عرفناها في هذا العصر، ولكنّها مستجدّات لغويّة مستعصية ومتنوّعة المعالم والأشكال، تتوالى وتتلاحق، بعضها يأخذ بعناق بعض، بحيث يصاب مَنْ يحاولها أومن يتصدّى لتقليدها بإحباط يدرك معه أنْ لا سبيل إلى المطاولة والمكابرة."[٢] وقد جسّد الباحث مفهومه للإعجاز اللّغويّ بناء على رؤيته لهذه اللغة، كاشفاً عمّا انطوت عليه من ظواهر لغويّة جديدة.

وفي الطَّريق إلى الكشف عن اللّغة القرآنيّة الجديدة، يعرض الباحث -في التّمهيد- جملة من المسائل التي تُمهّد لتقصّي هذه الظّاهرة (لغة القرآن). ويقف -في هذا الصّدد- على مصطلح (الإعجاز) مذكّراً بمعناه الأصليّ -كما ورد في المعاجم اللغويّة- وهو: "الأمر الذي يستحيل صنعه أو الإتيان بمثله"، منبّهاً على تراجع هذا المعنى في الدّراسات البلاغيّة إلى معاني: التّفوّق، أو التّميّز، أو العبقريّ؛ وهو ما يعني -عنده-: النّسبيّة، والتّفاوت، والبعد عن التّناول العلمي، والانزلاق إلى متاهة اللّغة غير القابلة للتّحديد. ويتحدّث -بعد هذا التّنبيه- عن جوانب الإعجاز عند القدماء، ويحصرها في ثلاثة: الجانب البلاغيّ، والجانب التّعبيري، والجانب العلمي.

---

[١] السّاعي، **المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج١، ص٢٣.

[٢] المرجع السّابق، ج١، ص٣٩.

وعلى أهميّة الجانبين –الأوّل والثّاني في رفد المصبّ الإعجازي العام للغة الوحي وَفقاً لتعبير الباحث– إلا أنّهما لا يشكّلان منفردَيْن "الأرضيّة الصّلدة والمقبولة لدى الباحث العلميّ المتجرّد في إثبات هذا الإعجاز؛"[٣] لأنّ الجمال البلاغيّ والدّقّة في التّعبير من المسائل التي تتّسم بالنّسبيّة القابلة للنّقاش والاختلاف. ويبيّن الباحث في حديثه عن الجانب العلمي –ومنه الإعجاز العددي– حقيقة وجود هذا الجانب في تراثنا القديم وأهمّيّته، رافضاً التّعسّف في تناوله، ولا سيّما في الدّراسات الإعجازيّة المعاصرة.

وينتهي الباحث –بعد تقصّي آراء القدماء في سرّ الإعجاز– إلى أنّه لم يقع –في أيٍّ من تلك الآراء– على ذلك الجانب اللّغويّ الذي يراه هو جوهر الإعجاز؛ وهو الجانب الأهمّ فيه والأكثر جدارة بهذه التّسمية؛ وهو يتمثّل في أنّ القرآن الكريم أتى بلغة جديدة كلّيّاً عجز العرب الفصحاء عن الإتيان بمثلها. ويتجلّى هذا الإعجاز في الكثافة الإعجازيّة للمواقع التّجديديّة: "فليس هناك وجه للإعجاز لو توقّفنا عند حقيقة واحدة أو اثنتين أو ثلاث من هذه الحقائق منعزلةً عن أخواتها. فقط عندما نكتشف كثافة المواقع التي شحنت بها الآيات والسّور من هذه المستجدّات، ونعرف كيف تتوالى الواحدة إثر الأخرى من غير توقّف ولا تنفّس ولا استراحة ولا فجوات، وكيف تختفي تحت كلّ كلمة أو تركيب أو عبارة قرآنيّة، وفي تضاعيفها وخلف أثوابها، واحدة أو اثنتان أو ثلاث أو أكثر من عجائب التّجديد اللّغويّ وأشكاله وألوانه."[٤]

ويتصدّى الباحث لدراسة هذا الجانب الإعجازيّ، مصرّحاً بهدفه النّهائيّ من وراء الدّراسة؛ وهو "أن نضع أيدينا –ما استطعنا وبقدراتنا البشريّة المحدودة– على البصمات الجديدة التي تركها الوحي على لغتنا العربيّة، وسيكون همّنا منصبّاً على الإجابة عن سؤال واحد: أين الجديد في لغة الوحي؟ وماذا أضافت هذه اللّغة إلى قاموسنا؟ ثمّ ننتقل بعد ذلك إلى البرهنة على أصالة هذا الجديد."[٥]

يجيب الباحث عن هذين السّؤالين في الجزأين كليهما؛ وقد ضمّ الجزء الأوّل أحد عشر فصلاً موزّعةً في بابين؛ واختصّ الجزء الثّاني بالتحليل المفصّل لظواهر اللغة

[٣] المرجع السّابق، ج١، ص٢٨.
[٤] المرجع السّابق، ج١، ص٤٤.
[٥] المرجع السّابق، ج١، ص٦٣.

الإعجازيّة الجديدة في سورة الفاتحة، والسّور العشرين الأخيرة، مع تمهيد تطبيقي على سورة فاطر.

يسهب الباحث -في الجزء الأوّل- في تتبّع ظواهر التّجديد في لغة القرآن الكريم؛ فيدرس في الباب الأوّل الموسوم بـ"لغة الوحي الجديدة" الشّخصيّة اللّغويّة للقرآن الكريم، ويركّز فيه على إبراز تفرّد القرآن وخصوصيّته في محاور متعدّدة؛ هي:

- التّسميات: القرآن، السّورة، الآية...
- التحدّي القرآني.
- الفنّ الأدبي الجديد (أدب السّورة). وهي تسمية يقترحها الباحث للقرآن الكريم المؤلّف من سور لها مقوّماتها الفنّيّة المختلفة من: سبائك، وتراكيب، وألفاظ، ومصطلحات، وإيقاعات، وفواصل، وروابط لغويّة، وطرائق مستقلّة في القراءة والتّجويد.
- التّميّز الفنّي لفواتح السّور.
- شخصيّة السّورة القرآنيّة.

وفي الفصل الثاني يتناول الباحث السّبيكة القرآنيّة؛ ويعني بها القوالب أو العبارات التي تجاوزت -بجدّتها- محدوديّة الوحدات اللغويّة/السّبائك (التّراكيب) التي كانت سائدة في الشّعر الجاهلي، وكانت قواسم مشتركة بين الشّعراء، واستمرّت زمناً طويلاً حتّى عصرنا هذا. وأظهر الباحث تمكّنَ لغة القرآن -بقوالبها الجديدة- من تجاوز النّسيج اللغوي التّقليدي السّائد وتشكيل نسيجها الخاصّ، مكوّنةً سبائكها اللّغويّة الجديدة التي أحدثت هزّة عظيمة في نفوس العرب.

وفي الفصل الثّالث يعقد الباحث موازنة بين السّبيكة القرآنيّة والسّبيكتين: البشريّة، والنّبويّة؛ لملاحظة الفروق بين الأسلوب القرآني، والأسلوبين: البشري، والنّبوي، منتهياً إلى القول بالتّفرّد القرآنيّ في كلّ من السّبيكة واللّفظة معاً "ثمّ في علاقات الألفاظ وعلاقات التّراكيب والعبارات بعضها ببعض. والقرآن في -ذلك كلّه- يبني لغة مميّزة يصعب حتّى على القارئ العادي أن يخلط بينها وبين الأساليب البشريّة المعروفة."[٦] فالقرآن —بما

[٦] المرجع السّابق، ج١، ص١٣٤.

يشتمل عليه من معانٍ وأساليب- يخرج بوحدات لغويّة صغيرة قد تكون جملة أو أكثر من جملة، تظلّ محافظة على خصوصيّة ألفاظها وعباراتها وبلاغتها وإيقاعها، مهما اختلطت مع آلاف الجمل البشريّة. ومن اللّافت أنّ هذه اللّغة ظلّت جديدة حتّى يومنا هذا: بسبائكها، وأبنيتها، وأعرافها النّحويّة.

ويقف الباحث -في الفصل الرّابع- على الصِّيغ التي تتألّف من لفظين أو ثلاثة ألفاظ، وما يقوم من هذه الصِّيغ على علاقة لغويّة أو نحويّة أو بيانيّة جديدة لم تعرفها اللغة العربيّة قبل القرآن الكريم، ويضع إزاءَها المقابل البشري -كما يتصوّره- مستنتجاً من هذه الموازنة "أنْ لا مجال للمقاربة أو المشابهة بينها وبين تراكيبنا البشريّة، مهما تنوّعت أساليبنا، شأنها في هذا شأن التّعبيرات القرآنيّة أيضاً."[٧]

ويتّخذ الباحث من سورة المدّثر -في الجزء الأوّل- أنموذجاً تطبيقيّاً يستشهد به في دراسته للظواهر اللغويّة الجديدة المختلفة في القرآن؛ معلّلاً ذلك بقوله: "حتّى نضع أيدينا -من خلالها- على مساحة هذه الظواهر كما ظهرت في الدّفقات الأولى من الوحي، وهي تتنزل ملء سمع وبصر العربي في مكّة."[٨]

ويحلّل الباحث -في الفصل الخامس- الألفاظ الخاصّة التي جاء بها القرآن؛ مقرّراً أنّ الإعجاز الحقيقي لا يكمن في جدّة اللفظ وحده، بل في "تلك الصّدمة النّوويّة المركّبة والشّاملة التي صدمت بها العاصفةُ اللغويّة القرآنيّة نواةَ اللغة العربيّة التقليديّة في زمن قياسي عجيب."[٩] وتتعدّد الأمثلة على أنواع اللفظ الجديد الّذي قد تأتي خصوصيّته من زوايا مختلفة؛ فقد تأتي من جدّته اللّفظيّة والمعنويّة، أو قد يكون جديداً باشتقاقاته، أو قد تأتي خصوصيّته من جدّته المعنويّة دون اللّفظيّة، وقد يرتقي إلى مستوى المصطلح (المؤمن/ الكافر)، وقد تأتي من المعنى المجازي الجديد الذي أضفاه القرآن على اللّفظ.[١٠]

ويفرد الباحث الفصل السّادس لدراسة تطبيقيّة للألفاظ والاستعمالات الجديدة للأدوات اللّغويّة في سورة المدّثر، مبيّناً احتواءها على (٨٤) لفظاً جديداً، منها "ما لا

[٧] المرجع السّابق، ج١، ص١٧٥.
[٨] المرجع السّابق، ج١، ص١٧٩.
[٩] المرجع السّابق، ج١، ص١٨٥.
[١٠] المرجع السّابق، ج١، ص١٩٠-١٩١.

يقل عن (١٤) لفظاً جاءت جديدة تماماً على العربيّ، إمّا كلّيّاً؛ بجذرها ومعناها معاً، وإمّا جزئيّاً؛ ببنائها ومعناها مع معرفة العرب لجذر هذا البناء من قبل، وهي:

الرّجز/ النّاقور/ صَعودا/بسَر/ لوّاحة/ ملائكة/ أوتوا/ الكُبر/ المجرمين (صيغة لم يعرفها الشعر الجاهلي بهذا المعنى)/سَلَككم/ سَقَر/ قَسْوَرة / المِغْفِرة.

وتضمّ السّورة –كذلك– ما لا يقلّ عن (٣٨) لفظاً عرفها العرب قبل الوحي، ولكنّها حملت في القرآن معنى جديداً، أو استُعملت استعمالاً مخالفاً، أو حلّت محلّ ألفاظ أخرى، وهي:

قُم/ فأنذر/ فكبّر/ ولربّك/ نُقر/ وحيدا/ ممدودا/ ومهّدت/ عنيدا/ فقُتل/ قدَّر/ يُؤثَر/ لا تُبقي/ ولا تَذر/ عليها تسعة عشر/ أصحابَ النّار/ عِدّتهم/ فتنة/ مرض/ مَثَلا/ ذكرى/ يتقدّم/ يتأخّر/كسَبت/ رهينة/ أصحاب اليمين/جنّات/ يتساءلون/ المسكين/ نخوض/ الخائضين/ نكذّب بيوم الدّين/أتانا اليقين عن التّذكرة/ هو أهل التّقوى وأهل المغفرة.

ويدرس الباحث –في الفصل السّابع– العلاقات اللّغويّة الجديدة؛ من حيث إعادة تكوين الوحدة اللغويّة، والوضع الجديد لأدوات الرّبط التقليديّة، ويتحدّث عن ظاهرتي: الحذف، والفصل والوصل في القرآن. وهو يعدّ ظاهرة (الفصل والوصل) من أكثر الظواهر اللّغويّة الجديدة شيوعاً في القرآن.

وفي الباب الثّاني الموسوم بـ"البلاغة القرآنيّة الجديدة" يقدّم الباحث هذه البلاغة في أربعة فصول؛ تتوزّع على النّحو الآتي:

الفصل الأوّل: البناء الجديد للصّورة القرآنيّة.

الفصل الثّاني: الفنّ القرآني الجديد: الالتفات.

الفصل الثّالث: اللغة المنفتحة في القرآن الكريم.

الفصل الرّابع: جوامع الكلم.

يبرز الباحث –في الفصل الأوّل– جدّة الصّورة القرآنيّة وحيويّتها وخروجها على الصُّورة التقليديّة التي اشتهر بها الشّعر الجاهليّ. وتتبدّى جدّة هذه الصورة –فضلاً عن الخزّان التّصويري الجديد الضخم– بهجر كلّ الصّور البيانيّة المشهورة المتداول منها وغير المشهور. ويكشف الباحث عن أثر القرآن في إحداث ثورة أساسيّة في البناء الفنّي للصّورة التقليديّة، مفاجئاً العرب بأنواع من العلاقات المتطوّرة والبعيدة والمتنوّعة بين الأطراف التي تتكوّن منها الصورة؛ ممّا أدخل الخيال العربي في حقبة جديدة، ووضع العرب مرّة واحدة أمام عالم كامل من الصّور لم يعرفها شعرهم ولا نثرهم بتلك الأبعاد والأطراف والعلاقات الجديدة.[١١] وبعد أن يفصّل الباحث القول في أنواع الصورة القرآنية (الصّورة ذات الأبعاد المتعدّدة، والصّورة المتحرّكة، وتوليد الصّورة من المعنى الجديد للفعل، والصّورة الافتراضية) يشرح تلك الأنواع كلّها في سورة المدّثر.

ويناقش الباحث –في الفصل الثاني– موضوع الالتفات؛ بوصفه فنّاً قرآنياً جديداً لم يعرفه الأدب العربي قبل القرآن ولا بعده حتّى الآن. وهو يرى أنّ البلاغيّين لم يفرّقوا في طبيعة هذا الفنّ بين الآيات والأشعار الجاهليّة حين أتوا بشواهد في هذا الباب. وقد خلطوا بين الالتفات والتّجريد، وانعكس خلطهم هذا على فهمهم لهذا الفنّ القرآنيّ؛ فخلطوا حتّى في شواهده القرآنيّة بين الالتفات الحقيقي والتحوّل الطّبيعي للحديث بين ماض ومضارع.[١٢] وأحصى الباحث تسعة أنواع للالتفات في القرآن، وهي: التفات المشهد، التفات الشّخصيّات، التفات الحدث، التفات الزّمن، التفات الجنس، التفات العدد، التفات العاقل وغير العاقل، التفات النّصب، التفات الحذف والإثبات. وعرّف هذه الأنواع كلّها ضارباً الأمثلة عليها من القرآن الكريم، ومطبّقاً مفهومه لهذه الأنواع على سورة المدّثّر.

ويطرح الباحث –في الفصل الثالث– مسألة انفتاح لغة القرآن، محلّلاً "ذلك النّوع الجديد من اللغة ذات الأبعاد المتعدّدة والطّبيعة المرنة التي تترك اللفظة أو التّركيب أو العبارة القرآنيّة مفتوحة لعديد من الاحتمالات، وهو يشير إلى وجود هذا النّوع من

[١١] المرجع السّابق، ج١،ص٢٤٤.
[١٢] المرجع السّابق، ج١، ص٢٦٢.

الألفاظ والتّعبيرات في "المتشابه من القرآن"، وينفي -في الوقت نفسه- وجوده في المحكم من آيات العقيدة والتّوحيد. ولا تقتصر الصّفة الانفتاحيّة للغة القرآن على اللّفظ أو العبارة أو الجملة، بل تشمل -عنده- البناء التّعبيري والفكريّ الكامل للقرآن الكريم. وكان هذا الانفتاح من أهمّ أسرار استقطاب القرآن لأقلام الكتّاب والدّارسين والمحلّلين على مدى القرون."[١٣]

ويلجأ الباحث -في هذا الفصل- إلى الموازنة بين لغة الشّعر الجاهلي المحدّدة الواضحة، ولغة القرآن المنفتحة، مُظهِراً البون الشّاسع بين اللغتين؛ من حيث تعدّدية المعنى وقابليّة التّأويل في لغة القرآن الكريم، وغياب هذا البعد في لغة الشّعر الجاهليّ؛ وهو ما يبرز الأثر العظيم الذي أحدثه القرآن -عبر لغته المنفتحة- التي تجاوز بها الشّعر واللغة الأدبيّة لعصر نزوله، "ففاجأ العرب بلغة جديدة تستجيب لتقلّب العصور، وتجدّد الأحداث، واختلاف الأنفس، وتطوّر الفكر البشري وثقافته وعلومه واكتشافاته عبر القرون."[١٤] ويُرجع الباحث السّبب في اتّصاف القرآن بهذه اللغة المنفتحة إلى عدم تقيّد القرآن بأعراف العرب اللغويّة، وتطويره "قواعدهم النّحويّة تطويراً يغنيها ويضيف إليها من غير أن يلغيها أو يحلّ محلّها قواعد جديدة مغايرة."[١٥] ويضرب أمثلة على ذلك؛ فيمثّل بمئة حالة توصَّل إليها من تلك الخصائص، مكتفياً بمثال واحد من كلّ حالة، إلاّ في الحالات التي قد يستدعي توضيحها وجود أكثر من مثال واحد؛ ثمّ يقف على المواقع الانفتاحيّة في سورة المدّثّر، ويخرج منها بما لا يقلّ عن تسعة وعشرين موقعاً بين لفظ أو عبارة. ويمتدّ تناوله -في وقوفه على خصّيصة الانفتاح في لغة القرآن- إلى الحديث عن القراءات القرآنيّة، وما يسمّى بالنّاسخ والمنسوخ من آيات الكتاب الحكيم؛ موضّحاً أثرهما في اتّصاف القرآن بهذه الخصّيصة؛ وهو يوجّه بعض الآيات التي تعدّ منسوخة، ويدخلها ضمن النّماذج التي تدخل في القراءة المنفتحة؛ مسوّغاً ذلك بأنّ الحكمة الإلهيّة اقتضت "أن تتنزّل آيات في أحوال وأحداث ظنّها بعض النّاس مؤقّتة وطارئة ولن تتكرّر؛ فنسخوا

[١٣] المرجع السّابق، ج١، ص٣٠١.
[١٤] المرجع السّابق، ج١، ص٣٠٦.
[١٥] المرجع السّابق، ج١، ص٣١٤.

العمل بها، ولم يدركوا أنّ كلّ ما تنزّل من السّماء فضمّه كتاب الله تعالى سيظلّ منفتحاً لكلّ العصور، وأنّ التّاريخ يعيد نفسه باستمرار، وأنّ الظروف والأحداث التي شهدها فجر الإسلام يمكن أن تتجدّد على امتداد الزّمن مرّة بعد مرّة."[١٦]

ويجلّي الباحث –في الفصل الرّابع– أثر لغة القرآن في حياتنا اليوميّة؛ وانتشار عبارات موجزة تعدّ من جوامع الكلم دون قصد أو وعي منّا؛ ومن أمثلة تلك العبارات: (إن شاء الله، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، الحمد لله). وثمّة عبارات قرآنيّة أخرى تجري على كثير من الألسن؛ مثل: (إنّ الله غفور رحيم، ولا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة). ويخلص من ذلك إلى ضرورة أن يُوضع قاموس قرآني وآخر نبويّ لجوامع الكلم؛ ينضمّ على أمثال تلك العبارات القرآنيّة والنّبويّة الجامعة والموجزة والبليغة، ويتمّ تصنيفها تصنيفاً علميّاً خاصّاً تبعاً لمعانيها؛ بغية إغناء لغتنا العربية ومدّها بثروة أدبيّة وفكريّة واسعة. وقد صرّح الباحث بأنّ هذا المسعى هو أحد أهداف دراسته.

وتقوم فكرة القاموس القرآني والنّبويّ على إحصاء العبارات القرآنية والنّبويّة التي جرت على الألسنة مجرى الأمثال وجمعها، ثمّ "التّنبيه إليها والدعوة إلى استخدامها، مع الإشارة إلى مواقع هذا الاستعمال ومناسباته ومجالاته التّعبيرية؛ وهو ما يمكن أن يشكّل في المستقبل معجماً معنويّاً مستقلاً بين دفّتيه."[١٧]

ويختم الباحث هذا الفصل بذكر جوامع الكلم في سورة المدّثّر، محصياً ما لا يقلّ عن خمس وثلاثين عبارة جامعة، وقد سردها كلّها مُقترِحاً مجالات استعمالها؛ ومؤكّداً انفتاح تلك المجالات لكثير من المعاني والمواقف الحياتيّة التي يتعذّر حصرها.

أمّا الجزء الثّاني من الكتاب فهو دراسة تحليليّة مفصّلة للظّواهر اللغويّة الجديدة مجتمِعةً في سورة واحدة، وقد افتتح الباحث هذا الجزء بمدخل نظريّ وقف فيه على أهمّ الظّواهر اللغويّة المدروسة في القسم الأوّل، جاعلاً من تلك الظّواهر مدخلاً تمهيديّاً لدراسة السّور الأخرى.

---

[١٦] المرجع السّابق، ج١، ص٣٣٠.

[١٧] المرجع السّابق، ج١، ص٣٣٨.

ويتّخذ الباحث –في المدخل– سورة فاطر أنموذجاً تحليليّاً لتلك الظّواهر اللغويّة الجديدة؛ معلّلاً اختياره لهذه السّورة؛ بوصفها معتدلة الحجم ومن أواسط سور القرآن. وينتهي من ذلك إلى أنّ القرآن يشتمل على تلك الظّواهر اللغويّة الجديدة، مؤكّداً ضرورة إدراك أنّ الإعجاز التّجديدي الذي يحاول اكتشافه في لغة القرآن الكريم، يقتضي ملاحقة اللُّحمة والسَّدَى في اللغة بكلّ تفاصيلها؛ من السّبيكة، إلى الجملة، إلى العبارة، إلى اللَّفظة، إلى علاقة كلّ من هذه الجزئيّات بما قبلها ثمّ بما بعدها.[١٨]

ويُذكّر الباحث قارئه بأهميّة الرّجوع إلى مقدّمة الكتاب؛ بوصفها المفتاح الحقيقي للدّخول إلى عالم الإعجاز التّجديدي في لغة القرآن الكريم، مشيراً إلى فقدان مَنْ فاتته معايشة تلك الحقبة الفريدة لتنزّل الوحي القدرة على تمييز إعجازه واكتشافه؛ ويرتدّ ذلك –عند الباحث– إلى ألفتنا الطّويلة للقرآن؛ فلم نعد نميّز فيه (شأننا مع كلّ معجزات الطّبيعة الهائلة والمستمرّة والمتكرّرة من حولنا) تلك الومضة الخاطفة التي سحرت ألباب من سمعوه أوّل مرّة. ويعدّ الباحث عمله في هذا البحث إماطةً لحاجز الألفة تلك؛ لتمثُّل لغة القرآن –كما تنزّلت في ذلك الوقت– على الإنسان العربيّ في إطار واقعه اللغويّ والفكريّ.[١٩]

ويشير الباحث –في معرض تحليله للظّواهر اللغويّة في سورة فاطر– إلى أنّه سيقف على الأبعاد الأساسيّة الثّلاثة التي يتحرّك خلالها بحثه، وهي: البُعد اللغوي، والبُعد البلاغي، والبُعد الفكري. ويذهب إلى أنّ تحليله هذا يمثّل أنموذجاً بين يَدَيْ كلّ من يريد أن يطبّق مثل هذا النّوع من الدّراسة تطبيقاً أوّليّاً موجزاً وغير متعمّق، ولكنّه –كما يرى– مفيد وكافٍ إلى حدّ كبير، على أيّ من السّور القرآنيّة. ويحيل الباحث مَنْ يريد الأنموذج المتعمّق لهذه الدّراسة، إلى تحليله لسورة الفاتحة والسّور العشرين التي خصّص لها الجزء الثّاني.

وتتمثّل الظّواهر التي حلّلها الباحث في سورة فاطر في القضايا الآتية:

---

[١٨] المرجع السّابق، ج٢، ص١٠.

[١٩] المرجع السّابق، ج٢، ص١٠–١١.

١. الألفاظ والأدوات والمصطلحات:

يرى الباحث أنّ أهمّ الظواهر التي تأتي تحت مظلّة هذا البعد ظاهرة الألفاظ الجديدة التي أدخلها القرآن إلى قاموسنا اللغوي؛ سواء تلك التي صيغت جديدة من جذر سبق أن عرفت العربيّة منه صيغاً أخرى مختلفة، أو تلك التي أوجدها القرآن من جذر جديد لأوّل مرّة. ويذكر الباحث نوعاً آخر من الألفاظ القرآنيّة الجديدة؛ وهو تلك المادّة اللّفظيّة القديمة التي منحها القرآن من خلال سياقاتها الجديدة واستعمالاتها المتنوّعة داخل الآيات معنىً وربّما معاني جديدة عدّة.[٢٠]

وينبّه الباحث على النّوع الأهمّ والأكثر من الألفاظ التي أدخلها القرآن في قاموسنا اللغوي، ويقصد به تلك الكلمات التي انتقلت من معناها الأصلي الذي تعارف عليه العرب قبل الإسلام إلى معناها القرآني الاصطلاحي الجديد. ويشير إلى أنّ هذا النّوع من الألفاظ مبثوث في كل مكان؛ "إذ لم يبق محصوراً بين دفّتي القرآن الكريم كما هو واقع كثير من الظّواهر اللغويّة والأدبيّة والعلميّة، بل إلى لغتنا اليوميّة المحكيّة أيضاً."[٢١]

ويحصي الباحث –في سورة فاطر– ما لا يقلّ عن مئة وستّين من الألفاظ والمصطلحات والأدوات ذات الاستعمالات الجديدة. منها: الملائكة، معشار، قطمير.

ومن الألفاظ القديمة ذات المعنى الجديد: فاطر، تؤفكون، يشرك.

ومن الألفاظ الاصطلاحيّة الجديدة: الخَلق، قدير، العزيز، السّعير. ويمثّل هذا النّوع من المصطلحات –عند الباحث– الخزّان الأكبر بين الجديد من الألفاظ القرآنيّة.

ومن الأدوات التي تحمل معاني جديدة:

- استخدام اللّام (٤) مرّات بمعنى لا تعرفه لغتنا البشريّة؛ وهو قريب من (جزاء) أو (عقاب): لهم عذاب شديد (أي جزاؤهم أو ينالهم/ لهم مغفرة وأجر كبير).
- استخدام (إنْ) بمعنى (ما) النّافية (إنْ أنت إلا نذير).
- استغراق (كان) للزّمن الماضي والحاضر والمستقبل(إنّه كان عليما قديرا).

[٢٠] المرجع السّابق، ج٢، ص٧.
[٢١] المرجع السّابق، ج٢، ص١٧.

٢. التّراكيب والتّعبيرات:

ويعني بها الباحث تلك الصّيغ اللّغويّة القصيرة التي يقوم بناؤها بشكل أساسيّ على الأدوات أكثر منه على الأسماء أو الأفعال. وربّما اكتمل تركيبها، فشكّلت جملة كاملة.[٢٢]

ومن أمثلة التّراكيب الجديدة:

فلا ممسك لها/ فلا مرسل لها/ إن أنت إلا نذير.

ومن أمثلة التّعبيرات الجديدة:

مثنى وثلاث ورباع/ هل من خالق غير الله/ فأنّى تؤفكون/ أصحاب السّعير.

ومن العلاقات اللغويّة الجديدة:

أ. بين الألفاظ: فاطر السّماوات/ جاعل الملائكة.

ب. بين الجمل: حلّت الآية محلّ الجملة لتصبح هي الوحدة اللغويّة الخاصّة بالقرآن.

٣. الخروج عن الأعراف النّحويّة واللّغويّة:

يفرّق الباحث في تحليله لهذه الظّاهرة بين الخروج عن القواعد، والخروج عن الأعراف؛ ذاهباً إلى أنّ القرآن الكريم أسّس للقواعد اللغويّة والنّحويّة وكرّسها، فقَلَبها من مجرّد أعراف وتقاليد متداولة بين العرب وقابلة للتغيّر والتّعديل في كثير منها، إلى قوانين وأحكام ثابتة يستند إليها في الحكم على سلامة أيّ نصّ أدبيّ أتى بعد القرآن أو قبله، وقد شُغل النّحويّون بالظّواهر (أو القوانين والأحكام) التي أدخلتها لغة القرآن الجديدة وانفردت باشتمالها عليها، ولم يعثر هؤلاء النّحويّون على شواهد عليها في اللّغة العربيّة قبل القرآن، ومن ثَمّ لجؤوا إلى تأويل تلك الظّواهر، وإخضاعها لمقاييسهم النّحويّة، مع أنّهم كانوا أمام لغة جديدة، تجديديّة، استحالت على التّقليد أو الاختراق.[٢٣]

٤. السّبائك القرآنيّة:

يقف الباحث على السّبائك ذات البناء المتميّز في سورة فاطر، ويذهب إلى أنّ القرآن جاء ليقلب كلّ السّبائك التقليديّة رأساً على عقب، منشئاً سبائكه الخاصّة ذات

[٢٢] المرجع السّابق، ج٢، ص٢٤.

[٢٣] المرجع السّابق، ج٢، ص٢٧.

البناء المتميّز؛ وهو يكاد يشمل كلّ آية من آيات القرآن، مع استحالة تقليد سبائكه. ويرى أنّ السّبائك كلّها –في سورة فاطر– جديدة، شأنها شأن سور القرآن جميعها. ومن أمثلة تلك السّبائك التي يعدّها الباحث جديدةً الآياتُ الكريمة الآتية:

– ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ (فاطر: ١).

– ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ (فاطر: ٢).

– ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ (فاطر: ٣).

٥. البعد البلاغي:

يُعنى الباحث في بيان هذا البُعد بالوقوف على الصّور القرآنيّة الجديدة في سورة فاطر، ويحصي في تحليله أكثر من ستّين صورة جديدة، خرجت عن مألوف العرب في التّصوير، ولم تخضع لقوانين البلاغيّين التي وقفت عاجزة عن استيعاب هذا الخزّان التّصويري الجديد كلّ الجدّة. ومن تلك الصّور الجديدة التي انطوت عليها لغة القرآن – كما يذهب الباحث–:

– ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (فاطر: ١)

– ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ (فاطر: ٢).

– ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ (فاطر: ٥).

– ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ (فاطر: ٩).

– ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ (فاطر: ١٠).

– ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ (فاطر: ١٣).

٦. فنّ الالتفات:

يُذكّر الباحث في حديثه عن الالتفات بما ذهب إليه في الجزء الأوّل؛ إذْ نفى معرفة العرب -قبل القرآن- لهذه الظّاهرة: "لا بمثل هذا النّضج والعمق والتّفرّد والوضوح، ولا بمثل هذه الكثافة والتّنوّع."[٢٤]

ويحلّل الباحث في سورة فاطر أربعة أنواع من هذا الالتفات؛ هي: التفات الزّمن، والتفات الخطاب، والتفات الجنس، والتفات النّصب.

ويستشهد بمجموعة الآيات الواردة في سورة فاطر، ويصنّفها تبعاً لنوع الالتفات التي تندرج تحته.

٧. اللغة المنفتحة: وهي -كما يعرّفها الباحث- كلّ الألفاظ التي يمكن أن تحمل أكثر من معنى، وكل التّعبيرات أو الجمل أو الآيات التي اختلف الفقهاء أو المفسّرون عليها.[٢٥] ومن أمثلتها:

- من الألفاظ: فاطر/ تؤفكون/ الغَرور.

- من التّعبيرات: ترجع الأمور/ كذلك النّشور.

ويستشهد الباحث بأنموذج تطبيقي، هو قوله تعالى: (إليه يصعد الكلم الطّيّب)؛ ليوضّح طبيعة هذه اللغة المنفتحة؛ فيسرد الآراء والتّأويلات التي يقدّمها الشّوكاني في تفسيره لهذه الآية في كتاب (فتح القدير).

٨. جوامع الكلم:

ويقصد الباحث بها تلك الكلمات القليلة التي "تختصر مواقف متنوّعة ومتشابكة في حياتنا اليوميّة."[٢٦] ومن الأمثلة التي تُعدّ من جوامع الكلم في سورة فاطر قوله تعالى:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ (فاطر: ١).

---

[٢٤] المرجع السّابق، ج٢، ص٧٠.

[٢٥] المرجع السّابق، ج٢، ص٣٧.

[٢٦] المرجع السّابق، ج٢، ص٤٦.

- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (فاطر: ٣).
- ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ (فاطر: ٨).
- ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ (فاطر: ١٤).
- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ (فاطر: ١٨).
- ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ (فاطر: ١٩).
- ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ (فاطر: ٢٢).
- ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨).

٩. البعد الفكري:

يركّز الباحث في شرحه لهذا الموضوع على بيان الأبعاد الجديدة للزّمان والمكان والأفكار التي تتجاوز الحدود الثقافيّة للجزيرة العربية؛ مثل: حديث القرآن عن سماوات عدّة: فاطر السّماوات والأرض، وولوج الليل والنّهار، والحديث عن الملائكة، والكتاب، والجنّات...وغيرها ممّا جاء في سورة فاطر.

ويؤكّد الباحث -لدى تناوله هذه القضايا- أنّ عمله في هذه السّور -في الجزء الثّاني- لن يكون تفسيراً للقرآن الكريم، ولا تحليلاً للغته، ولا تدليلاً على تفوّقه البلاغيّ أو التّعبيري، وإنّما سيقصر عمله على إبراز الجديد في لغة القرآن ونَحوه وصوره وبلاغته وأفكاره، واستقصاء هذا الجديد، وتمييزه من التّقليديّ أو المتعارف عليه عند العرب قبل الإسلام، لتبيّن حجم الكثافة الاختراقيّة التي حقّقها القرآن على مساحة جدار الفكر والخيال واللغة العربيّة.[٢٧]

وعلى هذا النّحو من التقصّي والتّحليل، يشرع الباحث في تحليل سورة الفاتحة والسّور العشرين الأخيرة، وهي: النّاس، الفلق، الإخلاص، المسد، النّصر، الكافرون، الكوثر، الماعون، قريش، الفيل، الهمزة، العصر، التّكاثر، القارعة، العاديات، الزّلزلة، البيّنة، القدر، العلق، التّين.

[٢٧] المرجع السّابق، ج٢، ص٤٦-٤٨.

ويرتكز الباحث في تحليلها كلّها على منهج واضح؛ يقوم على دراسة المواقع الجديدة تحت خمسة عناوين، هي:

١. الألفاظ والمصطلحات.

٢. الصّيغ اللغويّة والعلاقات الدّاخليّة.

٣. السّبائك اللغويّة.

٤. المواقع المنفتحة.

٥. جوامع الكلم.

في الختام:

يمكن القول: إنّ الباحث استطاع في هذه الدّراسة أن يجيب عن سؤال الإعجاز من وجهة نظره الخاصّة المسوَّغة بالشّرح النّظري والتطبيق العمليّ. وقد انفرد من بين الدّراسات الكثيرة بطرحه الفريد، ولم تحلْ هيبة الدّرس البلاغيّ واللغويّ القديم -في تناول الإعجاز القرآني- دون مخالفته لهذا التّراث.

لقد كانت جلّ القضايا التي ناقشها الكتاب مطروحة ومفصّلة في القديم والحديث؛ مثل: تعدّد وجوه الإعراب في القرآن، والمفردة، والسّبائك اللغويّة، والتّركيب، والأدوات اللّغويّة، والتّصوير، والالتفات، والفصل والوصل، والحذف، وجوامع الكلم؛ إلّا أنّ الجديد في الطّرح هو إثبات أنّ هذه الظّواهر -بالجدّة والكيفيّة التي جاء بها القرآن- إنّما هي وليدة اللّغة الجديدة (لغة القرآن)، وليست مسايِرةً لِلُغة العرب أو لأساليبهم، أو مواكِبةً لما كانوا يسلكونه في كلامهم، ثمّ جاء القرآن يبذّهم فيما يحسنون؛ فيتمثّل الإعجاز -بناء على هذا الفهم- بالتّفاوت الكبير بين أسلوب القرآن وأساليب العرب في الكلام؛ ليس هذا هو سرّ الإعجاز كما ترى هذه الدّراسة، وإن كان يمثّل نوعاً منه؛ بل يكمن جوهر الإعجاز في تمكّن القرآن الكريم من العصف باللّغة الجاهليّة وإحلال لغته الجديدة والتّجديديّة محلّها، وامتداد تأثير لغة القرآن في كلّ العصور حتّى عصرنا هذا.

هذا هو الجديد في هذه الدّراسة، وهو جدير بالنّظر والتأمّل؛ لأنّ الباحث اعتمد في إثباته على الإحصاء والتّحليل، ولم يركن إلى الانطباعات أو التّعميمات العَجْلى.